# الحس النسوى فى المديح النبوى

## قراءة فى قصيدة

## "محمد كل جوهره اصطفاء"

إبداع

همسة يونس

منذ الوهلة الأولى لقراءة عنوان قصيدة همسة يونس[1]: محمد كل جوهره اصطفاء، تتبادر إلى ذهن القارئ شخصية النبي محمد المصطفى – ﷺ– تلك الشخصية التى لم تنل شخصية ما نالته هى من الاهتمام البالغ والعناية الفائقة من الشعراء فى أشعارهم،على مر العصور من خلال قرض الشعر للتعبير عن تلك العاطفة الجياشة التى تنبع من فيوض وجدانية صادقة، منذ فجر الإسلام حتى الآن ؛مما يجسد مدى الحب للنبي، ﷺ، وتجلى ذاك فى مديحه من لدن الشعراء المبرزين.

ويبدو أن المديح النبوي أضحى غرضًا لا يكاد يخلو منه شعر شاعر متميز؛ لأنه تعبير عن العواطف الإيمانية الصادقة المتغلغلة فى القلوب المخلصة؛ فثمة نزعة عارمة عند كثير من الشعراء للتغني بشخصية النبي، ﷺ، وإيراد شمائله وفضائله الحميدة، بوصفه المثل الأعلى والأسوة الحسنة والإنسان المكمَّل وأفضل الخلق ورسول الله تعالى والرحمة المهداة والنعمة المسداة للعالمين، سيما أن الله تعالى أثنى على النبى – ﷺ– فى القرآن الكريم فة عدة آيات كريمات، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [2]

والعجيب أن تبجيل شخصية النبي– ﷺ– لم يقتصر على الشعراء المسلمين، بل تعدى إلى المنصفين من الشعراء غير المسلمين، مثل: محبوب الخوري الشرتوني، أحد شعراء المهجر الشمالي؛ حيث قال فى قصيدة " قالوا تحب العرب؟":

**ومحمد بطل البرية كلها هو للأعارب أجمعين إمام**

ومنهم: إلياس فرحات، أحد شالمبررة لذاك الحب؛ فهو موحد الأمة العربيـة، واليتـيم الـذى ربـاه ربـه، وصـاحب الخلـق العظـيم، والأمـين الصادق الصبار، والرءوف:عراء المهجر الجنوبي ؛حيث قال عن النبى – ﷺ– فى قصيدة مليئة بعاطفة جياشة، ونظرة بعيدة عن التعصب الطائفي :

غمـر الأرض بـأنوار النبـوة كوكـب لـم تـدرك الشـمس علـوَّه لم يكد يلمع حتى أصبحت ترقب الدنيا ومن فيها دنوَّه

ولعل فى ذاك التبجيل من أمثال هؤلاء الشعراء غير المسلمين أصدق دلالة على مدى إعجاب ذوي الحس المرهف بهذه الشخصية الفريدة.

ويقصد بشعر المديح النبوي ذلك الشعر الذي ينصب على مدح المصطفى – صلى الله وسلم– من خلال إيراد صفاته الخلقية والخلقية أفعاله، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، وذكر معجزاته المادية والمعنوية،ونظم سيرته شعرًا، والإشادة بغزواته والصلاة عليه تقديرًا وتجيلاً.

والمديح النبوى يضرب بجذوره فى عمق التاريخ؛ إذ تعود بدايته إلى القرن الأول الهجرى، وعلى وجه التحديد أوائل سنوات الهجرة، ثم تطّور على يد عدد من الشعراء على مرّ العصور حتى صار فنـًا ذا خصـائص واضـحة المعالم؛فبدايـة المديـح النبـوي ترجـع إلـى الجـدل التاريخي الذي نشأ بين بعض شعراء قريش الذين احتشدوا للدفاع عن الزعامة القرشية المناهضة لدعوة الإسلام من جهة، والنبي صلى الله

عليه وسلم وصحابته من جهة ثانية، فانبرى شعراء مسلمون لرد تلك الهجمة والدفاع عن الإسلام ورسوله، مثل: حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وميمونة بنت عبد الله البلوية.[3]

وهاهى همسة يونس تدخل بقصيدتها عالم المديح النبوى؛معلنة حبها للنبى، ﷺ، ذاك الحب الذى دفعها إلى إبداع قصيدتها المميزة، وهو الحب الذى تسمو به القلوب، وتفتح الأبواب المغلقة، وتكشف الحجب:

**بحبكَ وحدهُ ترقى قلوبٌ لغايتها، وينكشفُ الغطاءُ**

وعلى الرغم من بناء قصيدة همسة يقترب من الإطار التقليدى للمدحة النبوية فى التراث العربى، فقد خرجت عن ذاك الإطار؛فلم تستهل قصيدتها بالغزل والنسيب، على عكس ما فعل شعراء المديح النبوى، من أمثال كعب بن زهير بن أبي سلمى فى البردة المشهورة ببانت سعاد، فمطلعها غزلى:

**بانَت سُعادُ فَقَلبي اليومَ مَتبول مُتَيَّمٌ إثرَها لم يُفدَ مَكبولُ**

والبوصيرى فى البردة، ومطلعها: أمن تذكر جيرانٍ بذى سلم
مزجت دمعا جَرَى من مقلةٍ بدمِ

وأحمد شوقى فى نهج البردة، ومطلعها:

**ريمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ**

فقد استهلت مدحة همسة بمطلع عن موت الأنبياء فى مشهد رائع مفعم بالدراما والمفارقة، يجسد الموت خجلاً آسفًا باكًيا على قبض أرواحهم:

**يموتُ كما يريدُ الأنبياءُ**

**كأنَّ الموتَ إنْ شاءوا يشاءُ**

**ويأتي راعشًا خَجِلاً حزينًا**

**على كفّيهِ من عينيهِ ماءُ**

**أيبكي الموتُ ؟ قلتُ : بلى، ولولا**

**جلالُ اللهِ لاعتذرَ القضاءُ**

وتخرج همسة من تجسيد موقف الموت الدرامى مع الأنبياء عامة إلى موقف درامى آخر فى العلاقة بين البشر والرسول، ﷺ، الذى تهفو القلوب والعيون إلى رؤيته وكأنها خلقت لتلك الرؤية خاصة، كما أن القلوب تدمى من مفارقته، وكأن البكاء خصص للانهمار على انتقاله إلى الرفيق الأعلى :

**لأجلِ نراكَ قد خُلقتْ عيونٌ**

**وكي نبكيكَ قد خُلقَ البكاءُ**

غير أن شاعرتنا تتخلص من هذا المشهد الدرامى لتلج إلى محبة الرسول، ﷺ، تلك المحبة التى يتحقق بها وحدها بلوغ الغاية وكشف الحجب؛فهو النور الذى ملأ الدنيا بضيائه منذ مولده:

**بحبكَ وحدهُ ترقى قلوبٌ**

**لغايتها، وينكشفُ الغطاءُ**

**فليس الضوءُ ما تلقيهِ شمسٌ**
**ولكنْ سرُّ مولدكَ الضياءُ**

ومن ثم نجحت الشاعرة فى براعة الاستهلال وحسن التخلص- على حد مصطلحات نقاد العربية القدماء- من خلال هذا المشهد الدرامى الذى حوى مفارقة التباين بين الموت والمولد؛موت الأنبياء بما فيهم خاتمهم محمد المحبوب، ﷺ، ومولده فقط، وكأنها تومئ إلى أنه ما يزال حيًّا بضيائه؛ولعل الجمع بين المتناقضات مع الميل بعاطفة جياشة عارمة نحو الحبيب، يعد سمة نسوية سيما فى مثل هذه المواقف الدرامية، وربما تكون تلك المفارقة هى التى تجعل مطلع قصيدة شاعرتنا مختلفًا عن أشهر قصائد المديح السابقة تلك التى ركزت على فكرة الضياء فى مولد الرسول، ﷺ، ومنها:

قول كعب بن زهير:

**إنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ (لنور) يُسْتَضاءُ بِهِ**
**مُــهَنَّدٌ مِــنْ سُــيوفِ اللهِ مَــسْلُولُ**

وقول أحمد شوقى فى نهج البردة:

**سَـناؤُهُ وَسَـناهُ الشَـمسُ طالِعَـةً فَالجِرمُ في فَلَكٍ وَالضَوءُ في عَلَمِ**

وقوله فى الهمزية:

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ وَفُمِ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ

وفى المقطعين الآخرين من القصيدة يبدو أن شاعرتنا تبرهن على أحقية الرسول، ﷺ، بهذا النوع المتفرد من العشق، عن جدارة وتفرد، ففى المقطع الثانى من القصيدة تومئ الشاعرة إلى تفرد الرسول، ﷺ، بالشفاعة للأمة يوم القيامة، فبعد أن تستغرق النفوس فى أهوائها فى الدنيا بأرجائها وملذاتها ظانة أن انها دائمة لا تفنى، وإذا بها تحتار بين خوف ورجاء بعد أن تنتقل إلى دار الحساب:

**تجوبُ النفسُ، تُبحرُ في هواها**
**تَقَاذَفُها الغوايةُ والرجاءُ**

**بأشرعةٍ لها من كلِّ ظنٍّ**
**مُجنَّحةٌ تطيرُ، ولا سماءُ**
**تعربدُ في مراتعها إلى أنْ**
**بما كسبتْ يدبّ بها البلاءُ**

**تُساءُ النفس إنْ وُصمتْ بشرٍّ**
**وإنْ جُزيتْ بما فعلتْ، تُساءُ**
**تظنُّ الأرض لا تفنى، فتسعى**

**وواكرباهُ .. إنْ جاء النداءُ**

وإذا بالشاعرة تعرض بعض بأهوال يوم القيامة المتتابعة التى استوحتها من القرآن الكريم، مثل: وقوف الملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا بإذن من الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (4)، وذهول كل مرضعة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾(5)، ورجاء بعض الناس التحول إلى التراب والفناء النهائى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ (6)

**فمن يُنجي الأسيرةَ من لظاها**
**ومن يأسو ؟ وقد عزَّ الدواءُ**
**ترى المَلكَ الكريمَ هناك صفًّا**
**ولا يتكلمونَ .... والأَنبياءُ**

**وتذهلُ كلُّ مرضعةٍ، وترجو**
**نفوسٌ أن يحلَّ بها الفناءُ**

وفى هذا الموقف العصيب الملىء بالأهوال إذا بالحبيب، صلى الله عليه وسلم، يتفرد بالشفاعة ساجدًا تحت عرش الرحمن يترجاه العفو عن الأمة، فيستجيب الله تعالى للنبى ويحقق له رجاءه بعطاء ليس له حدود، وهذا مما اصطفى الله تعالى نبيه محمدًا وخصه، ﷺ، به؛فجعل حبه طاغيًا فى قلب الشاعرة:

**فيسجدُ تحت عرش الله نورٌ**

**وجوه الكائنات به تُضاءُ**

**ويسألُ ربّهُ .. حتى ليرضى**
**ويُعطى فوق ما يُدرى العطاءُ**

صحيح أن هذه الفكرة وذاك الموقف أورده بعض شعراء المديح النبوى السالفين، مثل أحمد شوقى، فى نهج البردة:

**وَقيـلَ كُـلُّ نَبِـيٍّ عِنـدَ رُتبَتِـهِ وَيا مُحَمَّدُ هَذا العَرشُ فَاستَلِمِ**

وقوله فى الهمزية:

**يـا مَـن لَـهُ عِـزُّ الشَـفاعَةِ وَحـدَهُ وَهـوَ المُنَـزَّهُ مـا لَـهُ شُـفَعاءُ**
**عَرشُ القِيامَةِ أَنتَ تَحتَ لِوائِهِ وَالحَـوضُ أَنـتَ حِيالَـهُ السَقاءُ**

غير أن هذا الموقف اقترن بفكرة الحب المقترن بالرجاء، دون الخوف عند شاعرتنا، وهذا ما ميزها عن شوقى وبعض شعراء المديح النبوى؛حيث أورد شوقى هذا الموقف فى سياق سرده شمائل النبى وخصائصه بدافع جعل ذاته الشاعرة تتراوح بين الخوف والرجاء، في دينامية منفعلة، متفاعلة.

ومن منطلق تلك العاطفة المفعمة بحب الرسول، ﷺ، تلج الشاعرة إلى المشهد الثالث الختامى للقصيدة متعرضة لبعض شمائل الرسول، ﷺ، التى اصطفاه الله واختصه بالجمع بينها، كما أنها المبررة لذاك الحب؛فهو موحد الأمة العربية، واليتيم الذى رباه ربه، وصاحب الخلق العظيم، والأمين الصادق الصبار، والرءوف:

**وحيدًا كنتَ، لكنْ لستَ فردًا**

ففيكَ توحّدتْ أَلِفٌ وباءُ

يتيمًا .. إنما ربَّاهُ ربٌّ
ففاق بخُلْقِهِ مَنْ قَبلُ جاءوا

محمدُ ليس يبلغهُ رجالٌ
ولا الكونُ الفسيح، ولا الرجاءُ

فكلُّ الكون يجري لانتهاءٍ
وخُلْقُ محمّدَ اللّاانتهاءُ

أمينًا صادقًا من قبلُ يدعى
وصبّارًا إذا اشتدَّ البلاءُ

رءوفاً بالعباد، وكان يضنى
ويشهدُ في مشقّتهِ حِراءُ

وعلى الرغم من تأثر الشاعرة بشوقى إيقاعيًّا فى همزيته، فقد ابتعدت عما قام به فى نهج البردة من استطراد فى تعداد شمائل النبى، ﷺ، فقد سرد شوقى كثيرًا من تلك الشمائل، على نحو ما فى قوله:

البَدرُ دونَكَ في حُسنٍ وَفي شَرَفٍ  وَالبَحرُ دونَكَ في خَيرٍ وَفي كَرَمِ
شُمُّ الجِبالِ إِذا طاوَلتَها انخَفَضَتْ  وَالأَنجُمُ الزُهرُ ما واسَمتَها تَسِمِ
وَاللَيثُ دونَكَ بَأسًا عِندَ وَثبَتِهِ  ذا مَشَيتَ إِلى شاكي السِلاحِ كَمي
في الحَربِ أَفئِدَةُ الأَبطالِ وَالبُهَمِ

تَهفـو إِلَيـكَ وَإِن أَدمَيـتَ حَبَّتَهـا
عَلـى اِبـنِ آمِنَـةٍ في كُـلّ مُصطَدَمِ

مَحَبَّـةُ اللَـهِ أَلقاهـا وَهَيبَتُـهُ
يُضـيءُ مُلتَثِمًـا أَو غَـيرَ مُلتَـثِمِ

كَأَنَّ وَجهَكَ تَحتَ النَقعِ بَدرُ دُجًى
كَغُـرَّةِ النَصرِ تَجلـو داجِـيَ الظُلَـمِ

بَـدرٌ تَطَلَّـعَ في بَـدرٍ فَغُرَّتُـهُ
وَقيمَـةُ اللُؤلُـؤِ المَكنـونِ في اليُـتُمِ

ذُكِـرتَ بـاليُتمِ في القُـرآنِ تَكرِمَـةً

كما أن الشاعرة ابتعدت عن المغالاة فى وصف الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ ومن ثم خالفت فى ذاك بعض فحول شعراء المديح النبوى، مثل: البوصيرى صاحب البردة، القائل:

**وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من**

**لولاه لم تخرج الدنيا من العدمِ**

الحبّ النبوي إذن هو السمة المائزة لمدحة همسة يونس، وتجلى ذاك الحب فى انتقائها ألفاظًا سهلة واضحة عذبة، واختيار تراكيب دالة على ذاك الحب العميق موضحة أسبابه، مثل:بحبك وحده، و ترقى القلوب، ووحيدًا، و ففاق بخلقه من قبل جاءوا، وليس يبلغه رجال ولا الكون الفسيح، وأمينًا صادقًا، وصبارًا، ورءوفًا بالعباد.

كما تجسد ذاك الحب العميق على المستوى الجمالى من خلال التكثيف الشعرى عن طريق تلك الصور الشعرية المتنوعة التى رسمتها الشاعرة ببراعة مستلهمة بعضها من القرآن الكريم والتراث الخاص بشعر المديح النبوى، موظفة إياها فى التعبير عن عاطفتها الجياشة الصادقة فى حب الرسول، ﷺ، بداية من صورة الموت الحزين على فراق

الرسول، ﷺ، للدنيا، وكأنه إنسان تذرف دموع أسفه على كفيه بعد أن يأتى خجلاً وقد ارتعشت يداه؛ مما يصور قمة الحب:

**كأنَّ الموتَ إنْ شاءوا يشاءُ**
**ويأتي راعشًا خَجِلاً حزينًا**
**على كفّيهِ من عينيهِ ماءُ**

**أيبكي الموتُ ؟ قلتُ : بلى، ولولا**
**جلالُ اللهِ لاعتذرَ القضاءُ**

ومرورًا بصورة النفس التى جسدتها الشاعرة فى صورة فتاة تتبع هواها وتعربد فى مراتعها سابحة فى بحر بأشرعة من الظنون، وإذا بها تحاول أن تطير بأجنحتها غير أنها لا تجد سماء تحلق فيها، حتى إذا وافتها المنية فلا تجد إلا ما يسيئها:

**تجوبُ النفسُ، تُبحرُ في هواها**
**تَقَاذَفُها الغوايةُ والرجاءُ**
**بأشرعةٍ لها من كلِّ ظنٍّ**
**مُجنَّحةٌ تطيرُ، ولا سماءُ**

**تعربدُ في مراتعها إلى أنْ**
**بما كسبتْ يدبّ بها البلاءُ**

**تُساءُ النفس إنْ وُصمتْ بشرٍّ**
**وإنْ جُزيتْ بما فعلتْ، تُساءُ**

**تظنُّ الأرض لا تفنى، فتسعى**
**وواكرباهُ .. إنْ جاء النداءُ**

وقد وظفت الشاعرة استعارات ومجازات وتشبيهات وكنايات ومحسنات بديعية وتراكيب لغوية وغيرها، فى تشكيل صورها الجميلة الواضحة.

وأعتقد أن هذا الحبّ العذري لمعشوق ليس له مثيل من البشر هو النبي، ﷺ، هو القوة الباعثة الصدق والحرية في هذه التجربة الشعرية النسوية المعبرة عن العاطفة الجّياشة، ولعل روحانية الحبّ ومكانة المحبوب هما مصدر التسامي والتجرّد عن الغاية في حبّ الشاعرة وفي مديحها. وهذا التجرد فى الحبّ هو ما أضفى على القصيدة ذاك الحس الأنثوى النسوى المميز.

وأرى أن أعرض القصيدة كاملة؛ لأنها لما تنشر فى ديوان.

## محمد كلُّ جوهرهِ اصطفاءُ

شعر / همسة يونس

يموتُ كما يريدُ الأنبياءُ
كأنَّ الموتَ إنْ شاءوا يشاءُ

ويأتي راعشًا خَجِلاً حزينًا
على كفّيهِ من عينيهِ ماءُ

أيبكي الموتُ ؟ قلتُ : بلى، ولولا
جلالُ اللهِ لاعتذرَ القضاءُ

لأجلِ نراكَ قد خُلقتْ عيونٌ
وكي نبكيكَ قد خُلقَ البكاءُ

بحبكَ وحدهُ ترقى قلوبٌ
لغايتها، وينكشفُ الغطاءُ

فليس الضوءُ ما تلقيهِ شمسٌ
ولكنْ سرُّ مولدكَ الضياءُ

تجوبُ النفسُ، تُبحرُ في هواها
تَقَاذَفُها الغوايةُ والرجاءُ

بأشرعةٍ لها من كلِّ ظنٍّ
مُجنَّحةٌ تطيرُ، ولا سماءُ

تعربدُ في مراتعها إلى أنْ
بما كسبتْ يدبّ بها البلاءُ

تُساءُ النفس إنْ وُصمتْ بشرٍّ
وإنْ جُزيتْ بما فعلتْ، تُساءُ

تظنُّ الأرض لا تفنى، فتسعى
وواكرباهُ .. إنْ جاء النداءُ

فمن يُنجي الأسيرةَ من لظاها
ومن يأسو ؟ وقد عزَّ الدواءُ

ترى المَلكَ الكريمَ هناك صفّاً
ولا يتكلمونَ .... والأنبياءُ

وتذهلُ كلُّ مرضعةٍ، وترجو
نفوسٌ أن يحلَّ بها الفناءُ

فيسجدُ تحت عرش الله نورٌ
وجوه الكائنات به تُضاءُ

ويسألُ ربّهُ .. حتى ليرضى
ويُعطى فوق ما يُدرى العطاءُ

وحيدًا كنتَ، لكنْ لستَ فردًا
ففيكَ توحّدتْ أَلِفٌ وباءُ

يتيمًا .. إنما ربَّاهُ ربٌّ
ففاق بخُلْقِهِ مَنْ قَبلُ جاءوا

محمدُ ليس يبلغهُ رجالٌ
ولا الكونُ الفسيح، ولا الرجاءُ

فكلُّ الكون يجري لانتهاءٍ
وخُلْقُ محمّدَ اللّاإانتهاءُ

أمينًا صادقًا من قبلُ يدعى
وصبّارًا إذا اشتدَّ البلاءُ

رءوفًا بالعباد، وكان يضنى
ويشهدُ في مشقّتهِ حِراءُ

# الهوامـــش

(1)همسة يونس: شاعرة فلسطينية ومراسلة صحفية بجريدة كلمة مصر .عضو اتحاد كتاب الإمارات العربية المتحدة.عضو دار الأدباء المصرية.عضو أتيلييه القاهرة.عضو جمعية أديبات مصرعضو اتحاد كتّاب الإنترنت العرب.عضو اتحاد نساء مصر .عضو حركة شعراء العالم بأمريكا اللاتينية.عضو الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب.عضو نادي القلم الدولي.عضو اتحاد الأدباء والمبدعين العرب.عضو سيدات الثقافة بنادي ليونز .رئيس فرع مؤسسة كلمة الثقافية بدولة الإمارات.صدر لها :طلاسم البوح، وتحت الطبع:ديوان أميرة الشعراء .شاركت فى مجموعة من المهرجانات والمؤتمرات، منها:مهرجان مكتبة الإسكندرية فى مارس 2003م، ومهرجان" ربيع الشعراء" بمعهد العالم العربي في باريس فى مارس2006م، ومهرجان ملتقى الشعراء الشباب العرب فىصنعاء، ومهرجان مؤسسة الكلمة نغم بالقاهرة 2010 م.توجت أفضل شاعرة فلسطينية عام 2010م.

(2)القلم: 4.

(3)انظر: أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني، بيروت، دار القلم، ط6، د.ت، ص 100 و 121 وعادل جاسم البياتي:الشعر ونضال الوحدة في صدر الإسلام، ضمن:

سعدون حمادي وآخرين: دور الأدب في الوعي القومي العربي، ط3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربى 1984م، ص113.

(4)النبأ: 38.

(5)الحج: 2

(6)النبأ: 40.